الباب الثامن

فى كلامه فى الحقائق والمقامات وكشفه فيها عن الأمور المعضلات

قال رضى الله عنه: الشوق على قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلّا بلقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة.

فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذاك مقام التعريف إيمانا حقيقيا وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محل المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقى، وذلك ميدان تجلى حقائق الأبدية.

والمحقق من لا يبالى بأى صفة يكون؛ لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار متنزلة عن الوجودية للصدّيقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبى جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فالعالم يدلك بالعلم من الأسماء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يحملك باليقين وبالحقائق من الصفات ونهايته منازل القربة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير فجمل قوما بالعلم وقوما بالحقائق وقوما بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾.

أى على معاينة، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهى النيابة، وأما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وغنّى لى منى قلبى ... فغنيت كما غنّى
وكنا حيثما كانوا ... وكانوا حيثما كنا

وقال رضى الله عنه:

أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.

ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة.

ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضُّ النفس عن الشهوات، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدى الرب، قال رسول الله ﷺ:

«من أعطى فشكر، وابتلى فصبر؛ وظُلم فغفر؛ وظلم فاستغفر».

ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟

قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»(٤).

أى لهم الأمن فى الآخرة وهم مهتدون فى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله؛ قال الله سبحانه:

﴿الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من يُنيب﴾(٥).

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فسار يطوى مهامه(٦) نفسه وبيداء(٧) طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(٨).

ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى:

﴿يختصُّ برحمته من يشاء﴾(٩).

فالأول حال السالكين.

والثانى حال المجذوبين.

فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة.

---

(٤) رواه ابن مردويه.

(٥) الشورى: ١٣.

(٦) مهامه جمع مهمه وهو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

(٧) البيداء: الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبيد من يحلها.

(٨) العنكبوت: ٦٩.

(٩) آل عمران: ٧٤.

ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة.

ولا تظنن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله له، فسلكها مسرعًا إلى الله عجلا.

وكثيرا ما تسمع عند مراجعات المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طويت الطريق له، ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضى الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

وقال رضى الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الزاهد غريب فى الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب فى الآخرة فإنه عند الله.

فإن قلت: ما معنى الغربة فى كلام الشيخ هنا وما معناها فى الحديث الوارد: «بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»؟(١٠).

فاعلم أن الغربة المذكورة فى الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غريبا لفقدان المساعد وعدم المعاضد، فلا ينهض القائم حينئذ إلا قوة إيمانه، ووفور إيقانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غريبًا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله فى بلاده وعباده حيث تقاعدت هم الناس عن القيام به.

وأما الغربة فى كلام الشيخ رضى الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريبا فى الدنيا إذ ليست وطنا لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها، وفيما شاهد من عقوبتها ونكالها، فاستغرب فى هذه الدار.

وأما العارف فإنه غريب فى الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريبا فى الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله وآداب رسله وأنبيائه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين.

وقال رضى الله عنه:

---

(١٠) رواه مسلم وابن ماجه والترمذى والطبرانى بنحوه.

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعهم التى كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع فى المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقا على نفوسهم من عقوبة الله.

وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلع مننه فعملوا على صيانتها ليقدموا عليها بها لم تدنس ولم تتغير طاهرة نقية، مشرقة بهية؛ وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وثيابك فطهر﴾(١١).

فطهروا ملابس إيمانهم وإيقانهم من دنس غفلتهم وعصيانهم، وفهموا أيضا قوله تعالى: ﴿يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوْءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير﴾(١٢).

فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المنن خشية أن تدنس بأوساخها كى يقدموا عليه بخلعه التى أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالوفاء فيما اقتضى منهم، وبالأمانة والصيانة فيما استأمنهم.

وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعه ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباى تحتهما ... قلب يرى ألفة الأعياد والجمعا
العيد لى مأتم إن غبت يا أملى ... والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

وقال رضى الله عنه:

العامة إذا خوِّفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا.

والخاصة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر، فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا: عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذى لا ينبغى أن يقنط من رحمته، ولا أن ييئس من مننه، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علما منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئته التى هى من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم، هل نقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن فى مشيئته؛ فلذلك

---

(١١) المدثر: ٤.

(١٢) الأعراف: ٢٦.

استثار الرجاء خوفهم، وحكمهم فى القبض والبسط كما قال الشيخ فى الخوف والرجاء غير أن البسط مزلة إقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم.

قال بعضهم: فتح لى باب من البسط فانبسطت، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة.

وكان الشيخ رضى الله عنه ينشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلا[١٣] فـإذا مـا نلـت منـه وصـولا

فاقرع الباب قليلاً قليلا.

غيره:

واحـذر البسط ونـادى بالحـبيب من على بعد تُنـادَى منَ قريب

فقوله: واحذر البسط لما قدمناه، فإن من رزق من الأنوار البسط فإنه يخشى على العبد أن يبغيه وجوده، قال الله سبحانه:

﴿ولو بسَط الله الرزقَ لعباده لبغوْا فى الأرض﴾[١٤].

والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد، إذ هو فى أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هى وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى[١٥].

وأخبرنى بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه فى المنام بعد موته مقبوضًا، فقال له: يا أستاذ مالك مقبوضا؟ فقال له: يا بنى القبض والبسط مقامات من لم يوفّهما فى الدنيا وفّى بهما فى الآخرة.

وكان هذا الشيخ الغالب عليه فى حياته البسط.

وقوله: ونادى بالحبيب من على بعد، أى من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعواك لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة.

وقال الشيخ أبوالحسن رضى الله عنه: ماطلبت من الله حاجةً إلّاوقدمت إساءتى أمامى.

فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحطّت عليهم صخرة فسدّت باب الغار فقالوا:

---

(١٣) من زمل يزمل: عدا وأسرع معتمدا فى أحد شقّيه رافعًا جنبه الآخر.

(١٤) الشورى: ٢٧.

(١٥) قال القشيرى فى «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط.

وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شىء فى المستقبل: إمّا أن يخاف فوْت محبوب؛ أو هجوم محذور - وكذلك الرجاء: إمّا أن يكون بتأميل محبوب فى المستقبل، أو بتطلّع زوال محذور وكفاية مكروه فى المستأنف، وأما القبض: فلمعنى حاصل فى الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه فى حالتيه بآجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه فى عاجله.

ثم قال: وقد عد أهل التحقيق حالتى القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه، لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلال العبد واندراجه فى الحقيقة: فقر وضرا.

ليذكر كلُّ واحد منكم أرجى عمل عمله لله، فذكر أحدهم برّه بوالديه، والآخر عفافه عن ابنة عمه مع حبّه إياها والتمكن منها، وذكر الآخر تثميره لأجرة أجير استأجره فلما وجده دفع ذلك كلّه إليه، فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن فم الغار فخرجوا، هذا معنى الحديث مختصرًا رواه مسلم فى صحيحه(١٦):

فاعلم أن هؤلاء الثلاثة لم يذكروا طاعاتهم إلاَّ وقد شهدوها فضلاً من الله عليهم فتوسّلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياءَ.

﴿ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًا﴾.

فتوسّل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام أوّل ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام. فقال: أهلاً بمن توسّل لإحساننا بإحساننا وأعطاها وأجزل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإخبار بطاعته ووجود معاملته؛ لأنه حينئذ متحدّث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف يصبح فيقول: صلّيتُ البارحة كذا كذا ركعةً، تلوت البارحة كذا كذا سورةً، فيقال له؛ أما تخشى من الرياء؟ فيقول: ويحكم وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره؟

وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه: ﴿وأمّا بنعمة ربِّك فحدِّث﴾(١٧). وأنتم تقولون: لا تحدث.

وقال رضى الله عنه: كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيفنى بعد أن كان، ومَنْ كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق؛ لأن الوجود المطلق إنما هو لله، وله الأحديّة فيه، وإنما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها.

واعلم أن مَن الوجود له من غيره فالعدم وصفه فى نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الصوفى من يرى الخلق فى طىّ سرّه كالهباء فى الهواء لا موجودين ولا معدومَين حسبما هم فى علم رب العالمين.

وقال أيضًا رضى الله عنه – وقد تقدم: وإنّا لا نرى أحدًا من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولابد فكالهباء فى الهواء إن فتشته لم تجده شيئًا.

وفى كتاب الحكم(١٨) منَ كلامنا: العوالم ثابتة بإثباته ممحوّة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبوالحسن رضى الله اه: كان لى صاحب كثيرًا ما يأتينى بالتوحيد فقلت له: إن

---

(١٦) ورواه البخارى فى صحيحه.

(١٧) الضحى: ١١.

(١٨) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندرى وهو – كما يدل سياق العبارة – أسبق فى التأليف من «لطائف المنن» الذى هو موضوع التحقيق.

أردت التى لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجودًا، والجمع فى باطنك مشهودًا.

وأشبه شىء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظلّ، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولامعدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبتَّ ظلّيه الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر؛ إذ الشىء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضًا من شهد ظلّيه الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار فى الأنهار لايعوق السفن عن التسيار، ومن هـٰهنا يتبين لك أيضا أن الحجاب ليس أمرًا وجوديًا بينك وبين الله، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب إليك منه ولاشىء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهّم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهّم موجود معه، وذلك كرجل بات فى مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوّة هناك فظنّه زئير أسد فمنعه ذلك عن البروز، فلما أصبح لم يجد هناك أسدًا وإنما هو الريح انضغط فى تلك الكوة فما حجبة وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد.

وسمعته يقول: لو عذّب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم من شىء، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من نعيمهم شىء، فكأنك فى الوجود وحدك ثم أنشد:

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ إلىّ يلح لك البرهان

وسمعته يقول: دخلت على الشيخ أبى الحسن وفى نفسى أن آكل الخشن وألبس الخشن.

فقال لى الشيخ: يا أبا العباس أعرف الله وكن كيف شئت.

ودخل على الشيخ أبى الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه، وقال:

ياسيدى ما عبدالله بمثل هذا اللباس الذى عليك.

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال:

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك، ولباسى يقول: أنا غنى عنكم فلا تعطونى، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطونى.

وهكذا طريق الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن رضى الله عنهما وطريقة أصحابهما الإعراض عن لبس زىّ ينادى على سرّ اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء. ومن لبس الزىّ فقد ادّعى.

ولا تفهم رحمك الله أنا نعيب بهذا القول على من لبس زى الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذ كانا من المحسنين.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾(١٩).

وأما لبس اللباس اللين وأكل الطعام الشهىّ وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذى يوجب

(١٩) التوبة: ٩١.

العتب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يابنى برِّد الماءَ فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل فى هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فسقَى لهما ثم تولَّى إلى الظلِّ فقال ربِّ إنى لما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقير﴾(٢٠).

ألا ترى كيف تولَّى إلى الظلّ قصدًا لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة؟

وسمعته يقول: اختلف الناس فى اشتقاق الصوفى: فمنهم من قال: إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل: هو منسوب إلى الصفّة، يعنى صفّة مسجد رسول الله ﷺ التى ينسب إليها أهل الصفّة وهو نسب على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه: إنه منسوب لفعل الله به، أى صافاه الله فصوفى؛ فسمّى صوفيًّا، ثم أنشد رضى الله عنه:

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا ... وكلهم قال قولاً غير معروف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتًى ... صافَى فصوفى حتى سمّى الصوفى

وسمعته يقول: الصوفى مركب من حروف أربعة: الصاد والواو والفاء والياء.

فالصاد صبره وصدقه وصفاؤه.

والواو وجده وودّه ووفاؤه.

والفاء فقده وفقره وفناؤه.

والياء ياء النسبة.

إذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضى الله عنه عن قول عيسى عليه السلام؛ يا بنى إسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضى الله عنه: أنا والله ممن ولد مرتين، الإيلاد الأوّل: إيلاد الطبيعة، والإيلاد الثانى: إيلاد الروح فى سماء المعارف.

وسمعته رضى الله عنه يقول: ولن يصل الولىّ إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لن يصل الولىّ إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه: لن يصل الولىّ إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى

---

(٢٠) القصص: ٢٤.

الله، أى انقطاع أدب لا انقطاع ملل، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيُلقى القياد إليه ويترك نفسه سلمًا بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئًا لعلمه بما فى الاختيار مع الله من الآفات. ولنا فى هذا المعنى من قصيدة ذكرناها فى كتاب التنوير.

وكن عبده وألق القياد لحكمه ... وإيّاك تدبيرًا فما هو نافع
أتحكم تدبيرًا وغيرك حاكم ... أأنت لأحكام الإله تنازع
فمحو إرادات وكل مشيئة ... هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع
كذلك سار الأوّلون فأدركوا ... على إثرهم فليمش من هو تابع

وقال رضى الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا الآدمى وقسمه على ثلاثة أجزاء:
فلسانه جزء.
وجوارحه جزء.
وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظًا فقال سبحانه وتعالى:
﴿ما يلفظ من قولٍ إلّا لديه رقيبٌ عتيد﴾(٢١).
وقال سبحانه:
﴿ولا تعملون من عمل إلّا كنّا عليكم شهودًا إذ تُفيضون فيه﴾(٢٢).
وتولّى حفظ القلب بنفسه فقال عزّ وجل:
﴿واعلموا أنّ الله يعلَم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾(٢٣).
وسلّط على الجوارح الشيطان.
واقتضى من كل جزء وفاء ما ألزم به.
فوفاء القلب أن لا يشتغل بهمّ دنيا ولا بمكر ولا حسد.

---

(٢١) ق: ١٨.
(٢٢) يونس: ٦١.
(٢٣) البقرة: ٢٣٥.

المراد بالتدبير المنهى عنه: هو اعتقاد الإنسان أن له دخلًا فى النتيجة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لله عاقبة الأمور﴾ والإنسان المؤمن يحكم الأمر إحكامًا تامًا كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى جميع أموره: فى الدعوة، وفى الغزوات، وفى العمل على الانتصار والفوز، إنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحكامًا تامًا، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للحظ ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحانه وتعالى ويرضى بها، ثم ينطلق منها مباشرة: - فورًا كانت أو غيره - إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها. يبدأ صلوات الله وسلامه عليه فى إحكامه وفى تصيف أوضاعه بحسب الحكمة الدقيقة ثم يترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأئمة الصوفية جميعًا، ومنهم أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وابن عطاء الله السكندرى - رضى الله عنهم جميعًا وجزاهم عن الخير أحسن الجزاء - يسيرون على هذا النسق لأنهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة حسنة استجابةً لقوله تعالى:
﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾.

ووفاءُ اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتحدث فيما لا يعنيه.

ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذى أحدًا من المسلمين.

فمن وقع من قلبه فهو منافق.

ومن وقع من لسانه فهو كافر.

ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضى الله عنه: صلاح العبد فى ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

وقال رضى الله عنه: قالى لى شيخى: لا تصحب إلّا من تكون فيه أربع خصال: الجود من القلّة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضى الله عنه: من اشترى زيتًا من بياع فلما فرغ قال له زدنى فزاده خيطًا فدينه أرق من ذلك الخيط، ومن اشترى فحمًا فلما فرغ قال له زدنى فزاده فحمةً فقلبه أسود من تلك الفحمة.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم سيِّئاتهم فهم فى الجنة قطعًا، وقوم تساوت حسناتهم، وسيِّئاتهم فلا يدخلون النار قطعًا، وقوم غلبت سيِّئاتهم حسناتهم فلا يخلدون فى النار قطعًا.

وقال رضى الله عنه: الدخول فى الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنيّة، والدرجات فيها بالأعمال، والدخول فى النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضى الله عنه: لا يدخل على الله إلّا من بابين؛ إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعى، وإما من باب الفناء الذى نعنيه هذه الطائفة.

وقال رضى الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف، وسرّ غريب.

فالجسم الكثيف بمجرده جماد.

والجسم اللطيف بمجرده جان.

والروح الشفاف بمجرده ملك.

والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالآدمى بظاهر صورته جماد، وبوجود نفسه وتخيّلها وتشكّلها جان، وبوجود روحه ملَك، وأعطى زائدًا على ذلك السر الغريب؛ فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضى الله عنه: ليس العجب ممن تاه فى نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب ممن تاه فى مقدار شبر الستين والسبعين سنة، وهى البطن.

وقال رضى الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.

فالأولياء لهم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء.

وقال رضى الله عنه فى قول بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا: أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزدد يقينًا فيما طالعه القلب.

وقال رضى الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفًا ذهبت دلالته على الله كالعليم والقادر والرحيم وغيرذلك من أسمائه الحسنى إلّا اسمه «الله» فإنك إذا أسقطت الألف بقى لله، فإذا سقطت اللام الأولى بقى له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقى هو وهو النهاية فى الإشارة، وأنشد ابن منصور الحلّاج:

أحرف أربع بها هام قلبى ... وتلاشت بها همومى وفكرى
ألِفٌ ألّف الخلائق بالصنـ ... ـع ثم مٌ على الملامة تجرى
ثم لأم زيادة فى المعالى ... ثم هاءٌ أهيم أتدرى

وقال رضى الله عنه: كشف لى عن أرواح الصدّيقين صاعدة نحو الملأ الأعلى فإذا قائل يقول لى: يا على:

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت ... مرابطها من بر يعص وميصرا

أى أنها ما فرّت جبنًا من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التعرف.

وقال رضى الله عنه: الوحى إلقاءُ معنىً فى خفاءٍ.

وقال رضى الله عنه: جميع أسماء الله للخلق إلّا اسمه الله فإنه للتعلق.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أنك إذا ناديته يا حليم خاطبك من اسمه الحليم أنا الحليم فكن عبدًا حليمًا، وإذا ناديته باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبدًا كريمًا، وكذلك سائر أسمائه إلّا اسمه «الله» فأنه للتعلق فحسب؛ مضمونه الأولوهية، والألوهية لا يتخلّق بها أصلًا.

وقال رضى الله عنه: السماءُ عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضى الله عنه: نحن فى الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون فى الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعته يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه: المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصرّ عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضى الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصودًا لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان.

وجاءه رجل فقال له: يا سيدى، هذا فتى.

فقال له الشيخ: أنت فتى؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدرى ما الفتوة؟ ليست الفتوّة الماء والملح، وإنما الفتوة الإيمان والهداية: قال الله سبحانه: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾(٢٤).

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾(٢٥).

فسمّى فتىً لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى.

الخليل عليه السلام وجد أصنامًا حسّية فكسرها، وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى ولك أصنام خمسة: النفس، والهوى، والشيطان، والشهوة، والدنيا. فإن كسرتها فأنت الفتى.

وافهم ههنا لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا على.

وسئل رضى الله عنه فقيل له: يا سيدى لم بدأ صاحب الرسالة بإبراهيم بن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدمًا عليه فى التاريخ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك، فجاء وقت الظهر وهو من كبار الأولياء، فبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

وقال رضى الله عنه:

عبدٌ هو فى الحال بالحال.

وعبدٌ هو فى الحال بالمحوّل.

فالذى هو فى الحال بالحال هو عبد الحال.

والذى هو فى الحال بالمحول عبد المحّول.

وأمارة من هو فى الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدها ويفرح بها إذا وجدها.

والذى هو فى المحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم تملكه فيصير الحال تحت قهر تصريفه، وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه فى العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن، والحال إنما هو فرع من فروع العلم، والعلم قارٌّ ثابت، والحال لا بقاء لها؛ لذلك قالوا:

لو لم تحل ما سميت حالا ... وكلّ ما حال فقد زالا

انظر إلى الظلّ إذا ما انتهى ... يأخذ فى النقص إذا طالا

والأكابر ملّكهم الله أحوالهم، وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجنيد: ما لنا نرى المشايخ يتحركون فى السماع وأنت لا تتحرك؟ فقال رضى الله عنه:

﴿وترى الجبالَ تحسبُها جامدة وهى تمرُّ مرَّ السحاب﴾(٢٦).

وقيل لبعضهم: مالك لا تتحرك فى السماع؟ فقال: إنه إذا كان فى الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدى، فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجدت.

فانظر كيف كان زمام حاله معه يمسكها إذا شاء، ويطلقها إذا شاء اتسع القلب بمعرفة الله غرقت

(٢٤) الكهف: ١٣.

(٢٥) الأنبياء: ٦٠.

(٢٦) النمل: ٨٨.

فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن وسعها، والعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق فى وسع معرفته، وهل رأيت بحرًا فاض بمطر سحاب؛ ولهذا جُهلت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتمها ولضيقهم عن وسعها، فربما كان صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكلما تمكّن الرجل فى العلوم الإلٰهية والمعارف الربانية استغرب فى هذا العالم، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه.

وقال رضى الله عنه؛ كل سوءِ أدبٍ يثمر لك أدبًا فهو أدب.

وقال رضى الله عنه: المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات أتراه يرضى بالشر؟

وقال رضى الله عنه: كان الجنيد قطبًا فى العلم وكان سهل بن عبد الله التسترى قطبًا فى المقام وكان أبو يزيد البسطامى قطبًا فى الحال.

وقال رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان فى الدائرة النفسانية تلقته النفس بالبشاشة والفرح، وإن كان فى الدائرة المعنوية تلقته الروح بالمحبة والمقة[٢٧]، فيقع الميل ويكون عن الميل السكون، ويقع مع السكون الأنس بالمسكون إليه، والله لا يحبّ لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشيء دونه؛ فلذلك قال الشيخ رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أى السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار.

فقال له الرجل: أما شكواى من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى نعم العبد برخ لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسحار ومن عرفنى لا يسكن لغيرى.

وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتنى أنها سمعت قائلًا يقول لها: أعوذ بك من النور وفتنته، ومن الغيب وتلفته.

وأخبرتنى أيضًا قالت: كنت أمشى بالإسكندرية وإذا بناس فى لهوهم وطربهم فقلت فى نفسى: هؤلاء فى فرح ومسرة وحلم الله من ورائهم ونحن فى ملاقاة النوازل وقهر الأحكام.

قالت: فإذا قائل يقول لى: ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

---

(٢٧) المقة: المحبة.

وأخبرتنى أيضًا قالت: إذا كنت فى حضرة أو موقف وأرادنى زوجى ليقضى إربه منى لا أمنعه ولا يستطيع ذلك كلما أراد منى أمرًا عجز عنه. قالت: حتى يضيق خلقه ويقول: ما هذه إلّا حسرة هذه الشابة فى حسنها بين يدى ولا تمتنع منى ولا أصل إليها. فأقول له فى ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة!

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه منى ما يريد.

وقال الواسطى: استحلاءُ الطاعات سموم قاتلة وصدق رضى الله عنه.

وأقل ما فى ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائمًا فيها متطلبًا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص فى نهوضك لها وتحب دوامها لا قيامًا بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلاوة والمتعة، فتكون فى الظاهر قائمًا لله وفى الباطن إنما قمت لحظّ نفسك، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً تعجلته فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاءَ لك.

وقال رضى الله عنه: لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمى فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة، فقال الشيخ رضى الله عنه عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه: ولا حيرة عند المحققين فيما فيه الحيرة عند المؤمنين.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: إن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدى الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان فيستولى عليه الكمد كلّما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرّة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله سبحانه:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾(٢٨).

فالأوّل: حال العبّاد والزهاد.

والثانى: حل أهل العناية والوداد.

الأوّل: شأن أهل التكليف.

والثانى: شأن أهل التعريف.

الأوّل: حال أهل اليقظة.

والثانى: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه فى إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

---

(٢٨) يونس: ٥٨.

قال أيضًا: قليل العمل مع شهود المنّة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس.

قال بعض أهل المعرة: لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالى: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله: ﴿من شرّ الوسواس الخنّاس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

فقيل لى: شرّ الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسيك ألطافه الحسنة، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد.

ولذلك قلّ أن تجد الزاهد والعابد إلّا مكمودًا حزينًا لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمّله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله.

قال الله سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً﴾[٢٩].

فعاين الزهّاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه؛ فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرًا عظيمًا وعلموا ضعفهم عن حمله وعن القيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وخُلق الإنسان ضعيفًا﴾[٣٠] وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[٣١] فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفّات المنن تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقّات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله: هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى ميادين التفريد.

فأما أهل القسم الأوّل وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره؛ لأنهم أقبلوا على نفوسهم موبّخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت؛ فلذلك قال العارف الذى سبق قوله: لا يخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

---

(٢٩) الأحزاب: ٧٢.
(٣٠) النساء: ٢٨.
(٣١) الطلاق: ٣.

فإن قلت: إذ كان توبيخ النفس وذمّها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله قد ذمّ النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟

فالجواب: أن ذمَّها لازمٌ لأن الله أمرك بذمِّها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلاً تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني هو الذي يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيرًا من القسم الأوّل لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك؛ فلأجل هذين المعنيين آثر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا بشهود ما من الله إلى الله فاقهم.

وقال رضي الله عنه: العارف إذا خوّف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ففررتُ منكم لما خِفتكم﴾(٣٢).

يريد الشيخ رضي الله عنه: أن العارف لا يقطعه فضل الله عن شهود عدله، ولا يحجبه شهود لطفه عن خوف ما بطن في مشيئته.

ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة في نهاياتهم ربما التبس حالهم بأهل البدايات في بداياتهم.

فإن المريد في مبدأ إرادته تؤثّر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه، فإذا تحقق فناؤه لم تؤثّر فيه الواردات ولم يدخل تحت حكم العادات، فإذا ردّ إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحالة في بدايته.

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾(٣٣).

فتجد المريد يخوّف فيخاف والعارف يخوّف فيخاف وليسا وإن استويا في الظاهر بسواء.

فخوف المريد لأجل حجبته، وخوف العارف لكمال معرفته.

ومن هنا لا نفضّل عبدًا واثقًا بلطفه ومنّته على خائف من غيب مشيئته.

وكذلك لا نفضل عبدًا وقف مع ظاهر الوعد على عبدٍ ردّ إلى وجود الأزلية فاقتطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والنعيم وردّ إلى ما سبق في القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر - وقد رفع يديه إلى السماء:

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، ومازال يناشد ربه حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال أبو بكر رضي الله عنه: يكفيك بعض مناشدته لربّك يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك(٣٤).

فالرسول ﷺ لكمال علمه بالله كان بشهود المشيئة، وأبو بكر رضي الله عنه كان بشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيف، والوعد إنما وصل أبي بكر على يد رسول الله ﷺ.

---

(٣٢) الشعراء: ٢١.

(٣٣) طه: ٥٥.

(٣٤) سيرة ابن هشام، والسيرة النبوية لابن كثير.

غير أنه سلك الله به المسلك الأتمّ من الرجوع إلى مشيئته التى لا تتوقف على شيء ويتوقف عليها كل شيء.

وقال رضى الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: من لم يتغلغل فى هذه العلوم مات مصرا على الكبائر وهو لا يعلم.

وسمعته يقول عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: كل شيء نهاك الله عنه فهو شجرة آدم إلّا أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل لماذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضى الله عنه: كان ببلاد المغرب ولىّ من الأولياء يتكلم على الناس وكان بادنًا، فجلس يومًا يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيرة: هذا رجل يزهدنا فى الدنيا وهو كالدب، فكوشف به الشيخ فقال من فوق المنبر: يا أبا رويس ما سمنى إلّا حبّه. ثم أنشد:

وقائل لست بالمحبّ ولو ... كنت محبا لذبت مذ زمن
أجبته والفؤاد فى حرق ... لم تذق الحب كيف تعرفنى
أحب قلبى وما درى بدنى ... ولو درى ما أقام فى السمن

وقال رضى الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فأتى إليه وأصحابه معه فلما أكلنا وعزمنا على الخروج ولم نشرب، فقال الشيخ: يا بخلاء من بخل الصوفى أن يأكل ولا يشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى مؤمنا شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعتق سبعين من ولد إسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم.

وقال رضى الله عنه: دخلت يومًا على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل أحدًا شيئًا، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله.

فقلت فى نفسى: كان النبى ﷺ يقبل الهدية، وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذه.

فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبى ﷺ يقبل الهدية[٣٥]، وقال ما أتاك من غير مسألة[٣٦]. فخذه، النبى ﷺ قال الله فى حقه:

﴿قل إنما أنذركم بالوحْى﴾[٣٧].

متى أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتديًا به فى الأخذ فكن مقتديًا به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئًا إلّا ليثيب من يعطيه ويعوّضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدّست هكذا فاقبل وإلّا فلا.

---

(٣٥) رواه أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى.
(٣٦) رواه البخارى.
(٣٧) الأنبياء: ٤٥.

وقال لبعض أصحابه: لم تنقطع عنى؟ قال: يا سيدى استغنيت بك.

فقال الشيخ رضى الله عنه: ما استغنى أحد بأحد، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يومًا واحدًا.

وقال رضى الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجبال فقال عزّ وجل: ﴿والجبال أرساها﴾(٣٨) كذلك لمّا خلق الله النفس اضطربت فأرساها بجبال العقل، فأىّ عبد توفر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووثقت بولىّ الأسباب فكانت مطمئنةً أى ساكنةً لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدةً عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاها لعلمها أنه يراها.

أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضيةً مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنّتى﴾(٣٩).

وقال رضى الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن فى الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضى الله عنه: يقول الله عزّ وجل:

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلى، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له.

وقال رضى الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وسمعته يقول: حقيقة النيّة عدم غير المنوى.

وسمعته يقول: قال عيسى عليه السلام: يا بنى إسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء فمن ينزل به، ولا فى الأرض فمن يصعد به، تأدّبوا بآداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق النبيّين أنبع لكم العلم من قلوبكم ما يغمركم ويغطيكم.

وقال رضى الله عنه: نحن إذا أتانا مريد له شىء من الدنيا لا نقول له أخرج عن دنياك وتعال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غدًا تهبّ ريح شديدة لا ينجيكم منها إلّا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن. فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبّت العواصف كان الكيّس من يرمى متاعه بنفسه، كذلك إذا هبّت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكى عن الشيخ عبد الرزاق - الولىّ الكبير رضى الله عنه - أن رجلًا من أهل المهدية أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال: يا سيدى كنت من أكابر المهدية وأعيانها وأكثر أهلها مالًا وعزًّا، فورد علينا رجل يدّعى أنه من الدّالين على الله فجئت إليه

---

(٣٨) النازعات: ٣٢.

(٣٩) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

وأنا متطلع محترق على الوصول إلى الله فقال لى: إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلّق نساءك بتاتًا، وحتى تغيرّ زيّك. ففعلت ذلك فما ازداد قلبى إلاّ قسوة، فضاق صدرى وحرت فى أمرى ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاه ولم أتعوض عن ذلك بشىء فى باطنى فجئت إلى هنا قاصدًا للحج.

فقال الشيخ عبد الرزاق دعوى على غير بصيرة قاتلهم الله، امكث عندنا. فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحجّ ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فخذ أفضلها ملبسًا وأحسنها مركبًا وادخل إلى المهدية فما حمل إليك من الدنيا فاقبله، وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه، وتجد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فتراجعهن، وتنال من العزّ والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه، فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينى قلبك.

قال: فسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهدية فسمع الناس أن فلانًا أتى من المشرق وليس فى البلدة إلاّ من له عليه يد ومعروف، فخرجوا يهرعون إليه بالملابس السنيّة والمراكب البهيّة، فلبس أحسنها ملبسًا وركب أفضلها مركبًا، ودخل المهدية فأهديت له الهدايا وحملت إليه التحف والأموال، ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهن فراجعهن، فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ فى ذلك اليوم ثم فتح الله عينى قلبه.

وتكلم يومًا فى فضائل أبى بكر رضى الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ: ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشىء وقر فى صدره. ثم قال: ما هو هذا الشىء الذى وقر فى صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصدّيق فى الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصى من المعصية، وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: ﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾.

وقال رضى الله عنه يوصى بعض أصحابه لما عزم على الحج:

إذا وصلت إلى البيت فلا يكوننّ همّك البيت وليكن همك رب البيت، ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال: من عرف الله لم يسكن إلى الله، لأن فى السكون إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قيل لى لا تأمنن مكرى فى شىء وإن أمنتك؛ فإن علمى لا يحيط به محيط. وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الولىّ فى فنائه لابّد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان فى البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له.

وكان يقول: «والله ما جلست حتى جعلت الطيران فى الهواء والمشى على الماء وطىّ الأرض تحت سجادتى.

وقال رضى الله عنه وقد قرأتُ عليه «الرعاية» للمحاسبى: كل ما فى هذا الكتاب يغنى عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك بشىء.

ثم لم يأذن فى قراءته بعد.

وسئل عن بعض المشايخ الكائنين فى وقته فقال: ضيّق الله عليه بالورع، ونحن وسّع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول فى قول بعض أهل الطريق:

العارف وسّعته المعرفة، والورِع ضيّق عليه الورَع.

لاتظننّ أن قولهم: العارف وسعته المعرفة. أنه يأكل حرامًا أو مافيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غُطّى عن الورِع فيمدّ يده إلى ذلك الطعام لعلمه بحلّه وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه؛ فلذلك ربما مدّ العارف يده إلى ما قبض المتورّع يده عنه.

وكان رضى الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.

وكان رضى الله عنه يفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبى عبد الله محمد الترمذى الحكيم، ويقول:

الشكر صفة أهل الجنة والصبر ليس كذلك.

وسمعته يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له. القبض الذى له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذى لا سبب له لا يكون إلّا لأهل التخصيص.

وكان رضى الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود منّة الرب.

يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال: كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.

وقال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقًا يوصّل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها، ألا تراه كيف قال:

﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلْفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين﴾(٤٠).

ولم يقل ولا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

---

(٤٠) الأعراف: ١٧.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية لاجين رحمه الله قلت له.

يجب عليكم الشكر لله، فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرحت قلوب الرعية بكم، والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء.

فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، فشكر اللسان التحدث بنعم الله، قال الله سبحانه:

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾(٤١).

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:

﴿اعملوا آل داود شكرًا﴾.

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هى من الله قال الله سبحانه:

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾(٤٢).

ومن القسم الأوّل قال رسول الله ﷺ.

«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثانى، أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلّف ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:

«أفلا أكون عبدًا شكورًا»(٤٣).

ومن الثالث، كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتى له.

فقال: وما الذى يصير به الشاكر شاكرًا؟

قلت له: إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد، وإذا كان ذا غنًى فبالبذل والإيثار للعباد، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضى الله عنه: إن لله ملَكًا يملأ ثلث الكون، وإن لله ملكًا يملأ ثلثى الكون، وإن لله ملكًا يملأ الكون كله، وإن لله ملَكا لو وضع قدمه فى الأرض لم يجد أين يضع الثانية.

ثم قال: يقول القائل: إذا كان ملك يملأ الكون كلّه فأين يكون الذى يملأ ثلث الكون، والذى يملأ ثلثى الكون فقال رضى الله عنه جوابًا عن ذلك: اللطائف لا تتزاحم، كمثل سراج أدخلته بيتًا فملأ البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبى بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: هو ذاك.

---

(٤١) الضحى: ١١.

(٤٢) النحل: ٥٣.

(٤٣) متفق عليه.

وسمعته يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر أتعلم يوم يوم؟

قال: نعم يا رسول الله سألتنى عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمدًا رسول الله.

وقال رضى الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء الرسول وعثمان وعلىّ خلفاء النبوة.

وقال رضى الله عنه: العامّة إذا رأوا إنسانًا ينسب إلى طريق الله جاء من البرارى والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم وكم من ولىٍّ لله وبدل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالاً وهو الذى يحمل أثقالهم ويدافع الأغيار عنهم فمثلهم فى ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته والحمر التى بين أظهرهم وهى التى تحمل أثقالهم لا يلتفتون إليها.

وقال: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

يا أبا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك فقل:

الله يعلم منى ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

علم الله ما يقال فى أوليائه والصدّيقين فبدأ بنفسه، فقضى على قوم أعرض عنهم فنسبوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل فى صدِّيق إنه زنديق، أو قيل فى ولىٍّ إنه غافل عن الله غوى، فإن ضاق الولى أو الصديق بذلك ذرعًا قيل له: الذى قيل فيك هو وصفك لولا فضلى عليك، وقد قيل فى ما لا يستحقه جلالى.

وقال رضى الله عنه: الهالك بهذه الطائفة أكثر من الناجى.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على أذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، وليتحقق الميراث فيهم، ليؤذوا كما أوذى من قبلهم فيصبروا كما صبروا، ولو كان من أتى بهدى إطباق الخلق على تصديقه هو الكمال فى حقّه، لكان الأوْلى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدّقه قومٌ هداهم الله بفضله، وحرم من ذلك آخرون حجبهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومنتقد، ومصدِّق ومكذِّب، وإنما يصدِّق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل، واستيلاء الغفلة على العباد، وكراهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف فى منزلة، أو اختصاص بمنّة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾(٤٤)؟ ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه،

(٤٤) الروم: ٦.

وشروق نوره فى قلوب أحبائه؟ وسبب هلاك الهالك بهم أن من أظهره الله منهم لابد وأن يظهره ببواهر المنن، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العموم أن يعطى ذلك غير الأنبياء، وأن تظهر الخوارق إلاّ فى أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كلّ كرامة لولى هى معجزة لذلك النبى الذى هذا الولى تابعٌ له، فظّن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولىّ مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبى والولى فى مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء مما هو للأنبياء كزق ملىء عسلاً فرشحت منه رشاحة، فما انطوى عليه الزقّ فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هى حظّ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعتزّ بعزيز لم يشاركه فى العز، فأولياء الله اعتزّوا بالأنبياء الذين اهتدوا بهداهم واقتفوا سبيلهم فلا يشاركونهم فى عزّهم؛ لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٤٥]؟ فلم يكن إثبات العزّة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عباده يوجب شركة الله فى عزّه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولى بل انقسم الأمر فيه كما بيّناه لما بيناه.

ولأمر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدّقين للولى فاته الصبر على تكذيب المكذّبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذّبين له فاته الشكر على تصديق المصدّقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأوليائه أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدّق ومكذّب؛ ليعبدوا الله فيمن صدقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لعزازة قدر الولىّ عند الله لم يجعله إلاّ محجوبًا عن خلقه وإن ظهر بينهم؛ لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالته، وبطن بسرّ ولايته.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

لكل ولى حجابٌ وحجابى الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة، والنفوس لا تحتمل صحبة من هذا وصفه، وسببَ ظهور ذلك الولى بذلك تجلى الحق عليه بصفة ظهر بها، فإذا غلبت عليه شهودًا غلبت عليه ظهورًا، فلا يصحبه ولا يثبت معه إلاّ من محق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضى الله عنه لا تجلس بين يديه إلاّ والرعب قد ملك قلبك.

ومن خلّصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز، وأى ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعوز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل فى كل قطر وعصر أولياء تذلّ لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابه كثرة التردد إلى الملوك والأمراء فى حوائج عباد الله فيقول القصير الإدراك: لو كان هذا وليًّا ما تردّد إلى أبناء الدنيا.

---

(٤٥) المنافقون: ٨.

وهذا جورٌ من قائله، بل انظر تردده إليهم: إن كان لأجل عباد الله وكشف الضرّ عنهم، وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد واليأس مما فى أيديهم، والتعزّز بعزّ الإيمان وقت مجالستهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾(٤٦).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القطب الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتى الأنام تقى الدين محمد بن على القشيرى رضى الله عنه يقول: جهل الناس وولاة الأمور بقدر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عن حسن كثرة ترداده إليهم فى الشفاعات.

ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلّا عبدٌ متخلّقٍ بخلق الله، قد بذل نفسه وأذلّها فى مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله ممتثلاً لقول رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(٤٧).

ولقد بلغنى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه أنه استدعى يهوديًّا كحالًا ليداوى بعض من عنده، فقال له اليهودى: لا استطيع أن أعالجه إلّا بإذن، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوى أحد من الأطباء إلّا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودى من عنده قال الشيخ لخدامه: هيئوا آلة السفر. وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذنًا وعاد ولم يبت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودى فاعتذر له بما اعتذر به أوّلًا فأخرج له الشيخ مكتوبًا بالإذن فأكثر اليهودى التعجّب من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولى كثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه.

وقال بعض المشايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجدّ والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذى يصيده يتصدّق ببعضه ويتقوّت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان فأقْرِه منى السلام وتطلب الدعاء منه لى فإنه ولى من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلّا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته فقيل لى: هو عند السلطان. فازداد تعجبى، فبعد ساعة، وإذا هو أتى فى أفخر ملبس ومركب، وكأنما هو ملك فى موكبه، قال: فازداد تعجبى أكثر من الأول قال: فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكننى مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لى، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

---

(٤٦) التوبة: ٩١.

(٤٧) أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وأبو داود.

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأوّل.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخى فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذى قال لك؟ قلت: لا شيء قال: لابدّ أن تقول لى. فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلًا، وقال: صدق أخى فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدى وعندى إليها بقايا التطلع.

ومن حجب أولياء الله قبولهم من الخلق، فإذا قبل الرجل ما يعطى صغر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلّا من لا يقبل دنياهم، ومن إذا أعطوه ردّ عليهم وأبى من القبول منهم.

ولعل فاعل ذلك إنما فعله زواقًا وزندقة، واستيلافا لقلوب العباد عليه، وليتوجّه بالتعظيم إليه، ولتنطلق الألسنة بالثناء عليه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من طلب الحمد من الناس بترك الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله فى شيء.

ومما قد يصدّ عقول العموم عن أولياء الله وقوع زلّة ممن تزيّا بزيّهم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان ممن وقف معه، وقد قال الله سبحانه: ﴿ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى﴾[٤٨].

فمن أين يلزم لمّا أساءَ واحدٌ من الجنس، أو ظهر عدم صدقه فى طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفى لنفسه رحمه الله تعالى:

استتار الرجال فى كل أرض تحت سوء الظنون قدرٌ جليل
ما يضير الهلال فى حندس الليـ ـل سواد السحاب وهو جميل

وأشدّ حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكيًا عنهم:

﴿ما هذا إلّا بشرٌ مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾[٤٩].

وقال سبحانه حاكيًا عنهم:

﴿أبشرا منّا واحدًا نتّبعه﴾[٥٠].

وقال سبحانه: ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾[٥١].

---

(٤٨) الأنعام: ١٦٤.
(٤٩) المؤمنون: ٣٣.
(٥٠) القمر: ٢٤.
(٥١) الفرقان: ٧.

وإذا أراد الله أن يعرّفك بولى من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته.

وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواقعين فى هذه الطائفة والمستهزئين بهم، لئلّا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق، وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلّموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلمًا بين يديه، تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته، واكتفاءً بقيّوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصًا أهل العلم الظاهر، فقلّ أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولى معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلّا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عاريًا عن وجود التصديق. فاحذر من هذا وصفه، وفرّ منه فرارك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدّقين لأوليائه بمنّه.